القضية اللبنانية

- ١ -

لبنان الكبير
مأساة نصف قرن

طبعة ثانية

١٩٧٦



لبنان إلى الأبد



للتوثيق والأبحاث
Documentation & Research

مقدمـــــة :

عام ١٨٦١ وُضع للبنان نظام حكم جديد وقّعت عليه كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا ، وفيما بعد ايطاليا. واصبح لبنان بموجب هذا النظام ولاية مستقلة يحكمها متصرف مسيحي ، يعاونه مجلس ادارة منتخب يضم اثني عشر ممثلا عن الطوائف الدينية المختلفة التي تقطنه. ولم يكن لبنان المتصرفية هذا يشمل البقاع ووادي التيم وبيروت وصيدا وطرابلس. وقد استمرّ على هذا النظام حتى الحرب العالمية الاولى.

ويقول احد كبار المؤرخين عن تلك الحقبة «انه بالرغم من فساد حكم المتصرفين وسوء ادارتهم ، وبالرغم من اقتطاع اجزاء كبيرة من لبنان ، وسدّ النوافذ عليه للوصول الى البحر ، وحرمانه من المناطق الخصبة : الساحل والبقاع ، فان لبنان ، بفضل نشاط سكانه وحسن تدبيرهم وقدرتهم على التكيّف ، كان ينعم بفترة ازدهرت فيها الثقافة والاقتصاد وتوطدت فيها اسباب الامن والاستقرار مما اعطى لبنان قصب السبق بين سائر الولايات العثمانية الاسيوية او الاوروبية ... وكان لبنان يعدّ من احسن مناطق الشرق الادنى حكما

وازدهارا اقتصاديا وامنا وصفاء. فانه في خلال عشرين او ثلاثين سنة ارتفع سعر الارض والممتلكات فيه مئة ضعف. ويَجب ان يكون المثل اللبناني المشهور «هنيئا لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان. قد وضع وشاع في هذه الاثناء». (حتي. لبنان في التاريخ. ٥٤٤) ففي خلال نصف قرن من الزمن استحال لبنان فعلا من بلد يعيش في العصور المتوسطة الى بلد عصري (حتي، ٥٤٧) «واصبح رائدا في تقريب الحضارتين الغربية والشرقية وفي التوفيق بين عناصرهما المتباينة... واصبح مركز اشعاع فكري... يشع منه نور الفكر والتحرر الى البلدان العربية المجاورة» (حتي، ٥٥٠) وكان نتاج ابنائه العلمي والادبي «اداة اليقظة العربية الفعّالة في القرن التاسع عشر» (حتي، ٥٦٥). أما من الناحية الطائفية فيقول شاهد عيان عن اللبنانيين في زمن المتصرفية انهم «اقبلوا في الغالب على الاخلاد الى الراحة، والتعامل بعضهم مع بعض من مختلف الطوائف والاحزاب على صفاء ومودّة كما لو كانوا اسرة واحدة من بيت واحد» (لحد خاطر، عهد المتصرفين في لبنان، ٥)

ثم جاء الانتداب.

وفي اول ايلول من العام ١٩٢٠ اعلن المفوض السامي الافرنسي قيام دولة لبنان الكبير، فألحق بلبنان بيروت التي اصبحت العاصمة

وصيدا وصور وطرابلس وبعض المدن الداخلية الصغيرة مع مقاطعاتها. فتضاعفت مساحة لبنان وقفز عدد سكانه بما يقرب من مئتي الف نسمة جلهم من المسلمين. كان قسم كبير منهم يسكن مناطق مهملة ومتأخرة اقتصاديا واجتماعيا (حتي. ٥٩٧ نقلا عن سعيد حماده. — Economie organisation of Syria بيروت ١٩٣٦. ٦، ٤١٠ – ٤١١) – فتبدّلت النسب الطائفية بشكل جذري.

في العام ١٨٤٢ كان عدد سكان لبنان بحسب الوثائق الرسمية ٢١٣٠٧٠ نسمة موزعين كما يلي:

١٦٤٩٤٠	مسيحيون
٣٥٠٠٠	دروز
١٢٣٣٠	شيعة
٢٠٠	يهود

(حتي، ٥٢٨ نقلا عن (Richard Edwards, la Syrie (Paris, 1862) 1840 - 1860 p. 71.

وفي العام ١٩١٣ كان عدد سكان لبنان يقدر بـ ٤١٤٨٠٠ نسمة منهم ٣٢٩٤٨٢ مسيحيون؛ فقفز بعد اعلان دولة لبنان الكبير الى ٦٢٨٨٦٣ نسمة منهم ١٥٠٠٠٠ يسكنون بيروت، ٣٠٠٠٠

طرابلس ١٣٠٠٠ صيدا اي ١٩٣٠٠٠ من ثلاث مدن ساحلية في اكثريتها الساحقة مسلمة. وقد حمل هذا احد المؤرخين على القول :

« هذا الكسب في مساحة الارض كان يقابله عدم تَجانس في السكان ونقص في التماذج والترابط » (حتي ، ٥٩٨).

منذ ذلك الحين قام في لبنان صراع سياسي وحضاري كان يشتد ويخبو بحسب الظروف ولكنه لم يتوقف لحظة واحدة. وقد ادّى هذا الصراع الى فتن احيانا والى حروب اهلية احيانا اخرى ، كالذي جرى عام ١٩٥٨ وكالذي يَجري اليوم. هذا الصراع الذي يسميه السياسيون تعايشا والذي يدعوه الذين لم يقرأوا التاريخ او الذين تستهويهم الاوهام الفلسفية « تَجربة فريدة » ليس سوى نزاع مستمر لم تخفض من حدّته مسرحية النفاق التي حاولت ان تموهه منذ العام ١٩٤٣ حتى اليوم ، ومن المستحيل ان يمكّن من بناء دولة حضارية. اما الاسباب ففي ما يلي :

١ – في المعتقد

سبب هذا النزاع الاساسي يعود الى الاختلاف بين المعتقد الديني الاسلامي والمعتقد المسيحي في النظر الى الدولة والوطن. فالمسلم بحكم معتقده ، له من الحكم موقف

« ولا يمكن ان يرضى بانصاف الحلول. فإما ان يكون الحاكم مسلما والحكم

اسلاميا فيرضى عنه ويؤيده ، واما ان يكون الحاكم غير اسلامي ، فيرفضه ويعارضه ويعمل على الغائه ، باللين او بالقوة ، بالعلن او بالسر. هذا موقف واضح ، لانه موقف مبدئي هو في اساس عقيدة المسلم ، وان اي تنازل من المسلم عن هذا الموقف اوعن جزء منه ، انما هو بالضرورة تنازل عن اسلامه ومعتقده . . . الاضطلاع بالحكم والسلطة جزء ضروري من الاسلام **لا يقوم اسلام المسلمين الا به**. . . المسألة في الواقع ليست مسألة تعصب . . . المسألة بكل بساطة ان هذا هو الاسلام . والمسلمون لم يأتوا بهذا الدين من بيت أبيهم ليغيروا فيه او يبدلوا منه . . . والمسلم في لبنان ، من حيث المبدأ ، لا يمكن الا ان يكون ملتزما بما يفرضه الاسلام عليه ، ومن ضمنه قيام دولة الاسلام ، وهكذا كان منذ الفتح الاسلامي لبلاد الشام وحتى سقوط الدولة العثمانية المسلمة » (السفير عدد ١٨/٨/١٩٧٥)

هذا الكلام هو للمدير العام لدار الافتاء في الجمهورية اللبنانية ، وبه يحدد موقف المسلمين من الأزمة الراهنة .

فبقاء لبنان بصيغته الحاضرة يحتّم اذن احد امرين : اما ان يتنازل المسلمون عن اسلامهم ليبنوا مع المسيحيين دولة علمانية عصرية ، وهذا غير وارد بالنسبة الى المسلمين ، واما ان يرضى المسيحيون بحكم اسلامي ، مع ما يستتبع ذلك ، على حد قول مدير عام دار الافتاء من «اعلام اسلامي ، واقتصاد اسلامي وتربية اسلامية وجهاد اسلامي . . . وكذلك الحال على صعيد الاحكام . . . كحدود قطع يد السارق ورجم الزاني وقتل القاتل ، وعلى صعيد الفرائض كفريضة الزكاة وفريضة الجهاد . . . الخ . »

من حق المسلم ان يتمسك بكل هذا. وليس لاحد ان يطلب منه التنازل عن اسلامه وما يفرضه عليه مهما كان السبب. واذا رضي المسلمون اليوم تحت ضغط الظروف بالتنازل عن بعض ما يفرضه دينهم فسيأتي غيرهم غدا وينقض باسم الدين عينه ما ابرمه سلفه. لهذا يبقى من حق المسيحي، لانه ليس مسلما، ان يبحث عمّا يساعده على تحقيق المصير الذي يصبو اليه، لاسيما وفي صيغة الحكم الاسلامي ما لا يتفق مع تطلعاته.

مفهوم الوطن

فمفهوم الوطن، وهو المرتكز الاساسي لبناء اي وطن، غير وارد في الاسلام. فمن القواعد العامة التي نادى بها رسول الاسلام «ان الولاء للامة يحل محل الولاء للقبيلة» (صبحي الصالح، النظم الاسلامية، ٢٥٥). والامة هي جماعة المسلمين حيثما حطت رحالها. ومفهوم الامة: هذا مفهوم سامي قديم، ما يزال معمولا به عند الساميين عامة. ووحده يفسر لنا كيف ان يهودي واشنطن يعتبر يهودي موسكو مواطنا له، وكيف يطلق المسلم اللبناني النار على الجيش اللبناني انتصارا للفلسطيني الذي يعتبره المسيحي اللبناني لاجئا وغريبا عن دياره.. ذلك «ان الاخوة الدينية هي اساس النظام الاجتماعي» (صبحي الصالح، النظام الاسلامي ٢٥٥) وهذه ثانية القواعد العامة التي نادى

بها رسول الاسلام. والاخوة الدينية التي تحل محل المواطنية لا تتقيد بارض وحدود. من هنا نفهم لماذا استعمل العرب كلمة اوطان بصيغة الجمع وبعنى المفرد دون غيرهم من الناس ، ولماذا عزفوا عن استعمال كلمة وطن بالمفهوم المتعارف عليه وآثروا استعمال تعبير «دار الاسلام» وهي كل ما يساس من بلدان بموجب الشريعة الاسلامية.

(راجع دائرة المعارف الاسلامية ، ٢/١٣٠ - ١٣١).

الشروط العمرية

فاذا كان المسيحي لا يستطيع ان يشارك المسلم في «الاخوة الدينية» اي في المواطنية ، فماذا يبقى له في دار الاسلام؟ تبقى له «الشروط العمرية».

والشروط العمرية هي احكام الشريعة الاسلامية في اهل الذمة. واهل الذمة هم اهل الكتاب ، ومنهم النصارى ، الذين سمح لهم بالبقاء في دار الاسلام ، ضمن شروط عرفت بالشروط العمرية ، وشرط ان يدفعوا الجزية «عن يد وهم صاغرون» (القرآن ، ٢٤/٩). والجزية تؤخذ منهم سنة بسنة لقاء تأمينهم واقرارهم على دينهم. (ابن قيم الجوزيّة ، احكام اهل الذمة ، ١٧)

« والاسلام نظام كامل وموقف شامل... وان اي تنازل من المسلم عن الموقف او عن جزء منه إنما هو بالضرورة تنازل عن اسلامه ومعتقده » (القوتلي ، السفير) فالتذكير

بالشروط العمرية ليس اذن احياء لنص قديم ميت ، بل تذكير بـجزء من السنّة الاسلامية التي لا يملك احد حق تغـيـيرها . وابن تيمية واضح في هذا المجال ، فهو يقول : «امّا ترك هذه الشروط العمرية واهمالها واستبدال غيرها بها ، رغم تلقي الائمة لها بالقبول ، فهو تهاون بامر من جعل الله الحق على قلبه ولسانه ، وتمكين لاعداد الله (كذا) من اظهار كلمة الكفر (كذا) ، والخروج عن حد الصغار (كذا) » (الشروط العمرية ، تحقيق صبحي الصالح ، ٢٣٦)

فالمسيحي في دار الاسلام هو اذن «كافر» و«عدو الله» له ان يعيش ، شرط ان يعيش ذليلا ، وليس لاي حكم اسلامي ان يعدل في القوانين التي تحدد وضعه عندما يكون في دار الاسلام . ولئن يتهاون الحكم الاسلامي في معاملته على هذا الأساس فمن حق القيمين على الشرع ان يذكروه في اي حين بما يمليه عليه الواجب في هذا المجال .

اما هذه القوانين فتلخص في ما يقال ان عمر بن الخطاب فرضه على نصارى الشام حين صالحهم ، فاشترط عليهم «الاّ يحدثوا في مدينتهم ولا فيما حولها ديرا ولا كنيسة ولا قلاية ولا صومعة راهب ، ولا يـجدّدوا ما خرب ، ولا يمنعوا كنائسهم ان ينزلها احد من المسلمين ثلاث ليال يطعمونهم ، ولا يؤووا جاسوسا ، ولا يكتموا

غشا للمسلمين ، ولا يعلّموا اولادهم القرآن ، ولا يظهروا شركا ، ولا يمنعوا ذوي قراباتهم من الاسلام إن ارادوه ، وان يوقّروا المسلمين ، وان يقوموا لهم من مجالسهم اذا ارادوا الجلوس ، ولا يتشبهوا بالمسلمين في شيء من لباسهم ولا يتكنّوا بكناهم ، ولا يركبوا سرجا ، ولا يتقلدوا سيفا ، ولا يبيعوا الخمور ، وان يجزوا مقادم رؤوسهم ، وان يلزموا زيهم حيثما كانوا ، وان يشدوا الزنانير على اوساطهم ، ولا يظهروا صليبا ولا شيئا من كتبهم في شيء من طرق المسلمين ، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ، ولا يضربوا بالناقوس الا ضربا خفيا ، ولا يرفعوا اصواتهم بالقراءة في كنائسهم في شيء من حضرة المسلمين ، ولا يخرجوا شعانين ، ولا يرفعوا اصواتهم مع موتاهم ، ولا يظهروا النيران معهم ، ولا يشتروا من الرقيق ما جرت فيه سهام المسلمين . فان خالفوا شيئا مما شرطوه فلا ذمة لهم ، وقد حل للمسلمين منهم ما يحل من اهل المعاندة والشقاق » . (الشروط العمرية ، ٥ – ٦)

وفي «احكام اهل الذمة» امور اخرى كثيرة لم ترد في هذه الخلاصة ، منها مثلا اقفال باب الوظائف في وجههم عملا بالحديث النبوي القائل : «انّا لا نستعين بمشرك» (احكام ٢٠٨ – ٢٠٩) ، وعدم مصادقتهم عملا بالآية التي تقول : «يا ايها الذين آمنوا ، لا تتخذوا اليهود والنصارى اولياء ،

بعضهم اولياء بعض ، ومن يتولّهم منكم فانه منهم» (القرآن ، ٥/٥٦) وعدم مشاركتهم في تِجارة لان «مشاركتهم سبب لمخالطتهم ، وذلك يَجرّ الى موادّتهم» (احكام ، ٢٧٣) وان فعلوا فالبيع والشراء يليهما المسلم (احكام ٢٧٠)

ولا تقبل شهادة الذمّي على مسلم (احكام ٤٠٥ ، ح ١) كما انه لا يحق له ان يستأجر مسلما لخدمته (احكام ٢٩٦ – ٢٩٧) او ان يرسل لحيته (الشروط ، ٨٨) او ان ينتعل نعلا شبيها بنعال المسلمين (الشروط ٩٠ – ٩١) او ان يفرق شعره. (الشروط ٩١)

وليس للنصارى ان يأتوا الى الكنيسة مجتمعين بل عليهم ان يتسللوا اليها لواذاً اي مستترين (الشروط ٦٥) كما ان المسلم لا يبدأهم بالسلام عملا بالحديث النبوي القائل : «لا تبدأوا اليهود والنصارى بالسلام ، واذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم الى اضيقه» (احكام ٢٩٢) ذلك ان «عقد الذمة اقتضى ان يكونوا تحت الذلة والقهر ، وان يكوم المسلمون هم الغالبين عليهم» (احكام ، ٧٨٩)

وقد اعتبر حكام المسلمين في كل زمن وصقع ان من واجبهم ان يعاملوا النصارى القاطنين في ديارهم على اساس هذه الشروط ؛ وحتى في الدول الاسلامية العصرية الاكثر تطورا ما يزال المسيحي مواطنا من الدرجة الثانية وهو يعرف انه لا يستطيع ان يطمح الى اكثر من ذلك .

صحيح ان المسلمين لم يطبقوا على النصارى كل هذا بحذافيره في كل الامكنة والازمنة. فمن الحكام من كان يَجتهد او يستنسب او يراعي ضرورة اجتماعية او سياسية. ولكنه في نظر الفقهاء، كان في هذا يخالف السنّة، تماما كما كان هناك من يشرب الخمرة بالرغم من تحريمها. وما من مرّة ارتفعت أصوات المتزمتين الا وخضع السلطان لها وطبق الشروط المسماة بالعمرية، كلها او بعضها، على اهل الذمة عامة، وبصورة خاصة على النصارى الذين قلما برحوا الدواوين لاضطرار مختلف العهود اليهم في الوظائف العامة. وقد حدث هذا زمن عمر بن عبد العزيز (احكام، ٢١٢) والمنصور (احكام، ٢١٤) والمهدي (احكام ٢٢٥ - ٢١٦) والرشيد (احكام، ٢١٧) والمأمون (احكام ٢١٨) والمتوكل (احكام ٢١٩) والمقتدر (احكام ٢٢٠ والراضي (احكام ٢٢٥) والآمر (احكام ٢٢٦ - ٢٣٦) والموحّدين والمرابطين والفاطميين والمماليك والعثمانيين (دائرة المعارف الاسلامية، ٢٣٧/٢ وما يلي)

وما من عهد، من عهود الدولة الاسلامية، الا وشعر النصارى فيه بانهم يعيشون على حساب كرامتهم. فكلمة «نصراني» كانت شتيمة، والذي كان يقول لمسلم «يا نصراني» (متز، الحضارة العباسية، ٦٧/١) او «يا ناقوس النصارى» (التوحيدي، الامتاع والمؤانسة، ٥٩/٢) كان يستحق التأديب ولم يخطر لاحد قط، في يوم من الايام،

انه يمكن ان يكون للنصارى ما لغيرهم من حقوق. ألم يثر الجاحظ في القديم لانهم اخذوا في زمانه يسبّون من سبّهم ويضربون من ضربهم؟ (الرد على النصارى، ١٨) وهو يضيف: «ومن حكم النبي ﷺ ان لا يساوونا في المجلس، ومن قوله: وان سبّوكم فاضربوهم وان ضربوكم فاقتلوهم». (الرد على النصارى، ١٨). وفي الزمن الحديث، الم يثر المسلمون في سوريا على الدولة العثمانية لانها اصدرت عام ١٨٥٦ قانونا يساوي بين المسيحيين والمسلمين في الامبراطورية العثمانية، فاعتبروا ان القانون باطل لانه يتنافى مع الدين واحلّوا بسبب ذلك دم النصارى وباشروا ابادتهم؟ (توما، ٢٧٩)

اما تنازل المسلمين اللبنانيين «عن مطمحهم في الحكم الاسلامي منذ عهد الاستقلال وسكوتهم عنه خلال الانتداب... نتيجة لبروز فكرة القومية العربية» (القوتلي، السفير) فليس بتنازل على الاطلاق، انما هو ابدال تسمية من تسمية اخرى وكلاهما يعني في النهاية امرا واحدا.

فما من احد حتى اليوم حدّد العروبة بغير ما يؤول الى قيام الدولة الاسلامية. ومّا من تحديد اعطي ووجد النصارى ان لهم نصيبا فيه. فان كانت العروبة في وحدة التاريخ، فتاريخ العرب هو تاريخ المسلمين اي تاريخ قهر النصارى وتحويلهم الى ذمة اذلاّء. وان كانت في وحدة التراث، فالتراث اسلامي حتى مطلع النهضة وليس

للنصارى فيه الا اليسير اليسير. وان كانت في وحدة اللغة. فقد حرّم على النصارى في الماضي تعلّمها (الشروط ١٣٣) وما زال حتى اليوم يُنكر عليهم حق تعليمها حتى في المدارس الابتدائية مع انهم حفظوها يوم تترّك العرب المسلمون وتكرّدوا وتفرّسوا وما زالوا اسيادها بالرغم من انها «ابت ان تتنصّر» على حد قول المسلمين.

فما تكون العروبة اذن؟ الجواب اعطاه واحد من كبار الجامعيين المسلمين في لبنان وقد ظهر في اطروحة دكتوراه للسيد تيودور هنف عام ١٩٧٠ – قال الجامعي المسلم:

«الاسلام هو في الواقع ديانة القومية العربية. وانا اؤمن شخصيا بان هذين المفهومين. اي الاسلام والقومية العربية. هما واحد. في السياسة يقولون ان الاسلام يمثل شطرا كبيرا من العروبة. وليس هذا سوى تساهل من قبل الساسة. في الواقع لا فرق بين الاثنين ويجب ان يكون الامر كذلك. ولا بد للوحدة من ان تأتي يوما ونحن دائما مع الذين يتجهون في هذا الاتجاه. مدارسنا ايضا تعمل في هذا الاتجاه. بالطبع كل المدارس المسيحية هي ضد هذا الاتجاه.

ويوم يقول النصارى انهم عرب ويتصرفون كعرب. يصبحون عندئذ مثلنا. ولكن عليهم ان يتصرفوا كاقلية بالمعنى الديمقراطي. تماما كما يتصرف البروتستانت كأقلية في فرنسا. مثل الأقلية في انكلترة مثلا لا يستطيع ابدا ان يصير ملكا. فمسألة مكان النصارى لها وجهان وجه ديني ووجه سياسي. الكل متساوون بالقيمة من حيث الديانة. اما في السياسة فالحكم للاكثرية...

واذا ما وصلت العروبة يوما الى القمة. هنا في لبنان. فان اناسا كريمون اده.

لا يتكلمون العربية ولا يريدون ان يكونوا عربا لن يكون لهم مكان . لا في الصف الاول ولا في الصف الثاني ولا في الصف الثالث.

واذا كنا نبغض الثقافة الفرنسية . فالمسيحيون الذين يتكلمون الفرنسية ويتمتعون بثقافة فرنسية جديرون لدينا بالبغض وبنفس المقدار.

ليس هناك من ثقافة لبنانية . الثقافة اللبنانية ثقافة فرنسية – مسيحية . نحن نعتقد اننا عرب يسكنون لبنان . الذين يدّعون وجود ثقافة لبنانية يقولون انهم لبنانيون – يظنون انهم اكثر صلة بالفينيقيين والاشوريين وغيرهم منهم بالاسلام . وانا ارى بعكس ذلك ان لا شئ يربطني بالفينيقيين ، فكياني يبدأ مع الاسلام . لبنان اليوم قائم على الاسلام .

والسؤال يبقى هو هو: ما الذي يَجب ان يكونه الاسلام في لبنان؟ هل ينبغي ان يكون دينا فقط؟ لا . يَجب ان يكون اكثر من ديانة بكثير. ان له دورا كبيرا يمثله على صعيد ثقافتنا . وما معنى ثقافة متوسطية؟ ماذا يعني شعار «اصل يوناني – لاتيني»؟ كل هذا لا صلة له الا بالنصرانية . وهو بالنسبة الينا غريب كل الغربة – فلا علاقة للثقافة اليونانية – اللاتينية بالعروبة».

(Theodor Hanf, Erzichungswesen in gesellschaft und Politik des Libanon — Bertelsmann Universitätsver — lag, 1970 Interview dre docteur Umar Farroukh.)

هذا هو رأي احد معلمي الجيل الاسلامي الحاضر في لبنان . وكل الممارسات التي شهدها لبنان منذ اختراع العروبة حتى اليوم تدل على انه يقول الحقيقة . أي حقيقة ما يضمره كل مسلم .

واذا كان الاسلام هو العروبة والعروبة هي الاسلام فما شأن المسيحيين بهما؟ واين هي المساواة التي تخبئها العروبة لهم؟

يكفي هذا لنفهم لماذا لم يكن المسلمون في لبنان «خلال هذه المراحل... وعلى الصعيد الشعبي خاصة، الا معارضين، يتنكرون للحكم والحكام، ويرفضون السلطة ومن فيها، بل كثيرا ما كان يؤخذ عليهم ولاؤهم العربي وتنكرهم للبنان الوطن». (القوتلي، السفير) - فاذا كان هذا تفكير سكان الاقضية التي الحقها الانتداب بلبنان قسراً عام ١٩٢٠ والذين باتوا يشكلون اكثر من نصف سكانه، فمن الظلم الفادح ان يفرض عليهم ما لا طاقة لهم باحتماله. فما من فرصة سنحت الا واظهروا رغبتهم في الانفصال عن لبنان، وقد انفصلوا عنه عمليا عام ١٩٥٨ وعام ١٩٧٥ ولم يعد للحكومة اللبنانية على مناطقهم اي سلطان. فباسم اي مفهوم يمكن ان يفرض عليهم البقاء لبنانيين.

اما المسيحيون فقد قاتلوا مئات السنين ليكون لهم وطن ولا يكونون فيه ذمة. فهل من المعقول ان تطلب منهم العودة من جديد الى حكم اسلامي او الى حكم عربي مرشح لان يكون اسلاميا حالما تسمح الظروف بذلك؟ الاحداث التاريخية التي سنذكرها في ما يلي تقول: لا؟

٢ - في التاريخ

برز المسيحيون في لبنان على مسرح التاريخ يوم اعتصموا بجبالهم ونجح صمودهم في وجه الفتح الاسلامي واضطروا المسلمين الى مصالحتهم على مال يؤديه الفاتحون لهم. (البلاذري. فتوح البلدان. مصر ١٩٥٩.

١٦٤ - ١٦٥). ومنذ ذلك الحين اصبح لبنان ملجأ «يلوذ به الملهوف والمضطهد من سكان سورية ومن سكان الساحل اللبناني» (حتي. ٣٠٠). وشيئا فشيئا تضخم عدد النصارى والمتنصرين في جبال لبنان وشكلوا ما سمي في ما بعد بالطائفة المارونية التي اصبحت اكبر وحدة مسيحية موحّدة ومتراصّة في هذه البقعة من العالم (راجع مونّس. ٤٠ وما يليها).

وازاء خطر الزوال المحدق بهم من كل جانب توحدوا في تنظيم دقيق. هرمي البنية. قوامه رجال الدين على اختلاف رتبهم وفي ما بعد المقدّمون. وعلى رأس الهرم بطريرك الطائفة، قائدها في السلم والحرب. وعلى غرار المسلمين الذين كان لهم كتاب ينظّم شؤون دينهم ودنياهم. سنّوا لانفسهم دستورا او مجموعة قوانين نظمت حياتهم الروحية والزمنية (راجع توما. ١٦ - ١٧ والمصادر المتعددة في ٣٠)

ولضرورات الدفاع والعيش. لم يتجمّعوا في مدن، بل توزعوا في قرى صغيرة مبعثرة على سفوح الجبال وقممها، تصل بينها شعاب وعرة يصعب على اي غازٍ سلوكها. ولقد حرصوا، حتى اواخر القرن التاسع عشر. على ان تبقى ديارهم صعبة المسالك. لا يطمع جيش نظامي في اقتحامها. ولهذا لم يشقوا اليها طريقا.

وككل اقلية مضطهدة ومهددة، تمرسوا بشؤون القتال. فكان

بوسعهم ان يَجيشوا عشرين الف مقاتل ، وفي زمن لا مارتين بين الثلاثين والاربعين الفا . ولم يكن اي قادر منهم يتلكأ عن واجب الحرب ، فلم يكن لديهم وسيلة اخرى للدفاع عن حياتهم وللحفاظ على دينهم وحريتهم ١ (توما ، ١٩) .

وتحمّل المسلمون هذه الشوكة في خاصرة الخلافة . فابادة النصارى في معاقلهم كانت ستكلفهم ثمنا باهظا وستحرم بيت المال من الضرائب التي كانوا يدفعونها . لهذا تركوهم يعيشون في جبالهم معزولين على هامش الخلافة ، يحكمون انفسهم على هواهم (توما ١٨)

ولكن الدولة كانت تعمد الى اضعافهم كلما تيسر لها ذلك ، ولاسيما اذا آنست فيما بينهم انشقاقا ، فترسل جيوشها في الحين بعد الحين تتسلق الجبال وتمعن في الناس تقتيلا وفي الاديرة والكنائس والمنازل نهبا وحرقا ، وتعود بما تيسر من الغنائم ، من مواشٍ وثمار واثاث وثياب وفضة . وتحسّبا لهذه الغزوات الدورية تَجنب المسيحيون اقتناء أي ثمين في منازلهم واكتفوا بما يمكن صنعه من خشب او فخار . وألِفوا شظف العيش واستعذبوه مع الحرية والاستقلال (توما . ١٨)

كتب عنهم لامارتين بعد ان عاش بينهم :

« في الحقيقة ، هذا شعب سعيد . الدولة تخشى جانبه ولا تَجروء على الإقامة

في دياره. ديانته حرة ومكرمة. اديرته وكنائسه تغطي قمم التلال. اجراسه التي يحبها ان تكون صوتا للحرية والاستقلال تتجاوب ليل نهار في الاودية داعية الى الصلاة. يحكمه رؤساء من ابناء عائلاته المتنفذة يختارهم وفقا لتقاليده».

(توما، ٢١ والحاشية ٥٠).

وكان من الطبيعي، في مثل هذه الحال، ان ينضموا الى الصليبيين عند وصولهم وان يقدموا اليهم كل ما يستطيعونه من عون – وقد سهلت وحدة الدين تمازج الفريقين، فكثر بينهما التزاوج والتبادل على كل صعيد مدة قرنين من الزمن – وعندما قُهِرَ الصليبيون لجأ قسم منهم الى جبال لبنان واستوطنوها – وكتب البابا وقتئذ الى بطريرك الموارنة يوصيه بهم خيرا ويطلب منه المحافظة عليهم. (حتي، ٣٩٠، ٣٩٢، توما، ٢١) وقد دفع اللبنانيون ثمن تأييدهم للصليبيين عندما غزا المماليك ديارهم وخرّبوها (حتي، ٣٩٧) ولكنهم لم يتمكنوا من القضاء على استقلالهم (حتي، ٤٠٣ – ٤٠٤)

هذه بالاختصار حال المسيحيين في لبنان منذ استوطنوا جباله. «فلا البيزنطيون ولا العرب ولا الصليبيون ولا المماليك ولا العثمانيون استطاعوا احتلال الجبال التي قطنوها» (توما، ٢٢ والحاشية ٥٤). جل ما توصلوا اليه كان غزوهم احيانا او فرض حصار اقتصادي وعسكري عليهم لارغامهم على دفع الضرائب (توما، ٢٢ الحاشية ٥٥). وهكذا تمكن لبنان من

حماية طوائف كثيرة هربت اليه عبر العصور كالاروام والسريان والكلدان والارمن، وفي زمن المماليك، الشيعة. (راجع مونس، ٤١ والحاشية ٢، حتي، ٣٩٧، ٤٩٤، ٥١٠)

الدروز

في منتصف القرن الحادي عشر ظهر الدروز على المسرح اللبناني - هم ايضا كانوا من الاقليات المضطهدة التي لجأت الى جنوبي لبنان واندمجت، على غرار الموارنة، بالسكان الاصليين من العرق الارامي. (حتي، ٣١٤). هم ايضا كان همهم الحفاظ على استقلالهم تِجاه أكثرية ساحقة تكفّرهم (راجع فؤاد الاطرش، الدروز). وقد استطاعوا ذلك بفضل شجاعتهم وبأسهم، ومرونة حكامهم، والخدمات العسكرية العديدة التي ما ترددوا في تأديتها للدولة عندما طلبتها منهم (راجع توما، ٢٣ والحاشية ٦٢، ٢٥، ٢٢).

وعندما جاء الفتح العثماني مُنح المعنيون الدروز وحدهم حق الاستقلال في ادارة شؤونهم ولم يعودوا مرتبطين بوالي الشام او بوالي طرابلس كما كانوا في السابق، بل اصبح ارتباطهم بالسلطان العثماني مباشرة (توما ٢٥، ٣٥، ٣٦). فعم الهدوء منطقتهم وسادها الامن. وباشر حكامهم تنفيذ سياسة عمرانية وزراعية لم يعرف الشرق مثلها قبلهم الا زمن الرومان، فشجعوا هجرة النصارى الى

ديارهم بعد ان اجلوا الشيعة من معظم مناطقهم. (توما ٤٧، ٤٨).

واخذ النصارى ينزحون الى المنطقة الدرزية باعداد كبيرة. وقد دفعهم الى ذلك رغبتهم في التخلص من فداحة الضرائب التي كان يفرضها والي طرابلس عليهم، وفقر الاراضي التي كانوا يعيشون عليها، وخصب الاراضي التي كان الدروز يعرضونها عليهم والتي كانت ترويها عيون غزيرة، والشعور بالكرامة والمساواة الذي لم ينعموا به قبل ذلك التاريخ الا في جبالهم. (توما ٤٨، ٤٩، ٤٧ والحاشية ٢). وهكذا برزت في المنطقة الجديدة اديرة وقرى للنصارى، وبساتين وكروم، وزاد اطمئنانهم عندما اصبح مستشارو الامير منهم ومعظم الجيش من ابنائهم وعندما رأوا الامير الدرزي يستقبل بنفسه التجار الاوروبيين في مرفأ صيدا، ويبني لهم خانا في المدينة ويشجع على مجيء الارساليات المسيحية الى البلاد.

وبرزت فكرة توحيد البلاد «بلاد الدروز والنصارى» بعد ان كان يقال «الامة الدرزية» «والامة المارونية». ولاول مرة في الشرق تلتقي طائفتان مختلفتا الدين على بناء وطن، ويشعر كل منهما بانه ضروري لبقاء الاخر. (توما، ٥٠)

وهكذا تحالف امير الدروز وبطريرك الموارنة، واتفقا على ارسال

اسقف يعمل على عقد معاهدة مع ايطاليا، كما اتصل الامير بالبابا ليشجع الموارنة على التحالف معه لتحرير لبنان من نير الترك وعلى تحرير الاراضي المقدسة. وقامت دولة لبنان، وامتد ملكها من انطاكية شمالا الى صفد في فلسطين جنوبا. (حتي، ٣٧٠، توما، ٤٩، ٥٠)

وامتزج ابناء الطائفتين بشكل رائع فاخذ الموارنة عن الدروز الكثير من عاداتهم واتخذ شيوخ دروز القابا مسيحية ومنهم من اعتنق النصرانية. وتآخت عائلات وتضامنت في السلم والحرب. (توما ٤٨، ٥٠). ولقد دهش فولناي «من شدة الشبه بين الدروز والموارنة في اساليب العيش وفي نظام الحكم وفي اللهجة وفي العادات والآداب العامة. فان عائلات درزية ومارونية تعيش جنبا الى جنب متوادة، واحيانا يصطحب الموارنة جيرانهم الدروز الى الكنائس». (حتي، ٤٩٥ – ٤٩٦، مونس، ٤٦ وما يليها)

واستمرت الحال على هذا المنوال حتى منتصف القرن التاسع عشر، اي الى اليوم الذي تدخل فيه العنصر السنّي في حياة الجبل، فأزكى الترك التناقضات بين الطائفتين بسلسلة من التدابير المخطط لها، وافتى شيخ الاسلام بدمشق بضرورة ابادة النصارى في جبل لبنان وسوريا لانه لا يَجوز ان يتساووا مع المسلمين، تماما كما استحل المماليك من قبل دم الدروز بفتوى من ابن تيمية الذي اعتبرهم كفارا (توما ٢٧٩، حتي ٣٩٨ – ٣٩٩) فكانت مذابح

المسيحيين. وفي مذابح الستين «وحدها احرق للمسيحيين في المنطقة الدرزية اكثر من ستين قرية وقتل معظم سكانها. وكانت الاوامر في بعض المناطق ان يقتل كل ذكر بين سن السابعة وسن السبعين. فلجأ بعض الناجين الى المدن السنيّة فقتلهم اهلها كما احرق اهل دمشق الحي المسيحي فيها وقتلوا حوالي احد عشر الف مسيحي (حتّي، ٥٣٠ - ٥٣٣، توما ٢٨٢)

فتحركت الدول العظمى ووضعت للبنان نظام المتصرفية الذي اشرنا اليه في مطلع المقدمة، وقد وفر للبنان الطمأنينة حتى الحق الانتداب به المدن والاقضية التي يقاتله معظمها اليوم ويحاول القضاء على المسيحيين فيه.

من كل ذلك يمكن ان نستنتج ان الصيغة اللبنانية الحالية غير قابلة للعيش، وان الجيل الذي حاول بناء دولة معاصرة منذ ١٩٤٣ حتى اليوم جيل عمل في الفراغ - فالمسلمون الذين رفضوا منذ البدء الالتحاق بدولة لبنان الكبير ما زالوا يعتبرون انهم سلبوا حريتهم وان الحكم الذي اخضعوا له هو حكم مسيحي ماروني لا يتفق في حال مع ما يأمرهم به دينهم. ولهذا هم يرفضونه اليوم بالثورة (القوتلي، جريدة السفير).

اما المسيحيون الذين كانوا ينعمون بوطن لهم، فانهم فقدوا تدريجيا اهمّ ما قاتلوا في سبيله طيلة اجيال متعاقبة. لقد اضطروا

الى التنازل شيئا فشيئا عن مقوّمات ثقافتهم لان شركاءهم يرفضون كل ما يحمل طابعا مسيحيا ، فيسمونه استعماريا ، وكل ما يحمل طابعا لبنانيا فيسمونه انعزاليا . ولم يعد بوسعهم ان يحلموا بازدهار حضارة غير الحضارة الاسلامية . ومن المعروف ان الاسلام لم يتح لاي حضارة غير اسلامية ان تنمو بِجواره .

وأما من الناحية السياسية فقد فقد المسيحيون كل مبادرة منذ ارتبط مصيرهم بمصير العروبة ، وكثيرا ما سوّيت مشاكل العالم العربي على حسابهم . وقد جرّهم ذلك الى فقدان السيادة على بلادهم فاصبحوا لاجئين فيها ، تنتهك مقدساتهم وتحرق قواهم ويتعرضون لمذابح ما كانوا ليتعرضوا لها لو بقوا ذميين في دولة اسلامية .

واما من الناحية الاقتصادية ، فقد عرف لبنان في السنوات الثلاثين الاخيرة ازدهارا لا مثيل له . ولكنه ازدهار ظل بلا حماية . فمنذ اكثر من عشر سنوات ما فتئ لبنان يتعرض لفتن تشلّ العمل فيه وتعمل على بوار افضل مواسمه . ولقد وجد الاخوان العرب في مسلمي لبنان ارضا خصبة ، فاصبح لكل دولة من دولهم فريق منهم يمثلها ويعمل علنا لحسابها ، فانتقلت صراعات العرب الى الساحة

اللبنانية وزعزعت ركائز الامن فيه. وكانت نتيجة ذلك ان نسفت مؤسساته واحرقت اسواقه ونهبت، وتعطّل العمل فيه، ولم يَجْنِ لبنان الصغير من تَجربة لبنان الكبير سوى الخراب والافلاس.

لهذا كانت اعادة النظر في الصيغة اللبنانية الحالية امرا ملحّا. فالصراع بين لبنان والاقضية التي الحقت به لن يتوقف – فهي لن تنسجم فيه الاّ اذا سيطرت عليه وأسلمته. ومن حق اللبنانيين ان يرفضوا صيغة تمحو شخصيتهم وتقضي على حضارتهم وتعرّضهم في الحين بعد الحين الى المذابح، وتحول بينهم وبين رسالة ثقافية وحضارية اضطلعوا بها يوم كانوا احرارا في بلدهم وكانت الدول العربية اول من افاد منها.

تشرين الاول ١٩٧٥



أهم المصادر والمراجع الوارد ذكرها

توفيق توما ، «الريفيون والمؤسسات الإقطاعية عند الدروز والموارنة في لبنان من القرن السابع عشر حتى ١٩١٤» – بيروت ١٩٧١

فيليب حتّي ، «لبنان في التاريخ» ، – بيروت – نيويورك ، ١٩٥٩

ابن قيّم الجوزيّة ، «أحكام أهل الذمّة» ، – دمشق ، ١٩٦١

ابن قيّم الجوزيّة ، «شرح الشروط العمرية» إعداد صبحي الصالح ، – دمشق ١٩٦١

فؤاد الاطرش ، «الدروز» – بيروت ١٩٧٤



سلسلة : «**القضية اللبنانية**» .

ظهر منها الاعداد التالية :

١ – لبنان الكبير مأساة نصف قرن ، **١٩٧٥**

٢ – لبنان في نظامه السياسي ، **١٩٧٥**

٣ – بين علمنة الدولة والغاء الطائفية السياسية ، **١٩٧٥**

٤ – دراسة موجزة حول بعض امتيازات الطوائف الاسلامية في لبنان ، **١٩٧٥**

٥ – الرسائل اللبنانية الجزء الاول ، **١٩٧٥**

٦ – المحنة اللبنانية في أهم ابعادها ، **١٩٧٥**

٧ – اعرف حقيقة لبنان السياسي ، **١٩٧٦**

٨ – موجز عن المشكلة الفلسطينية في لبنان ١٩٧٦



الثمن ليرة لبنانية